عَرَفتُهُم عَن قُرب

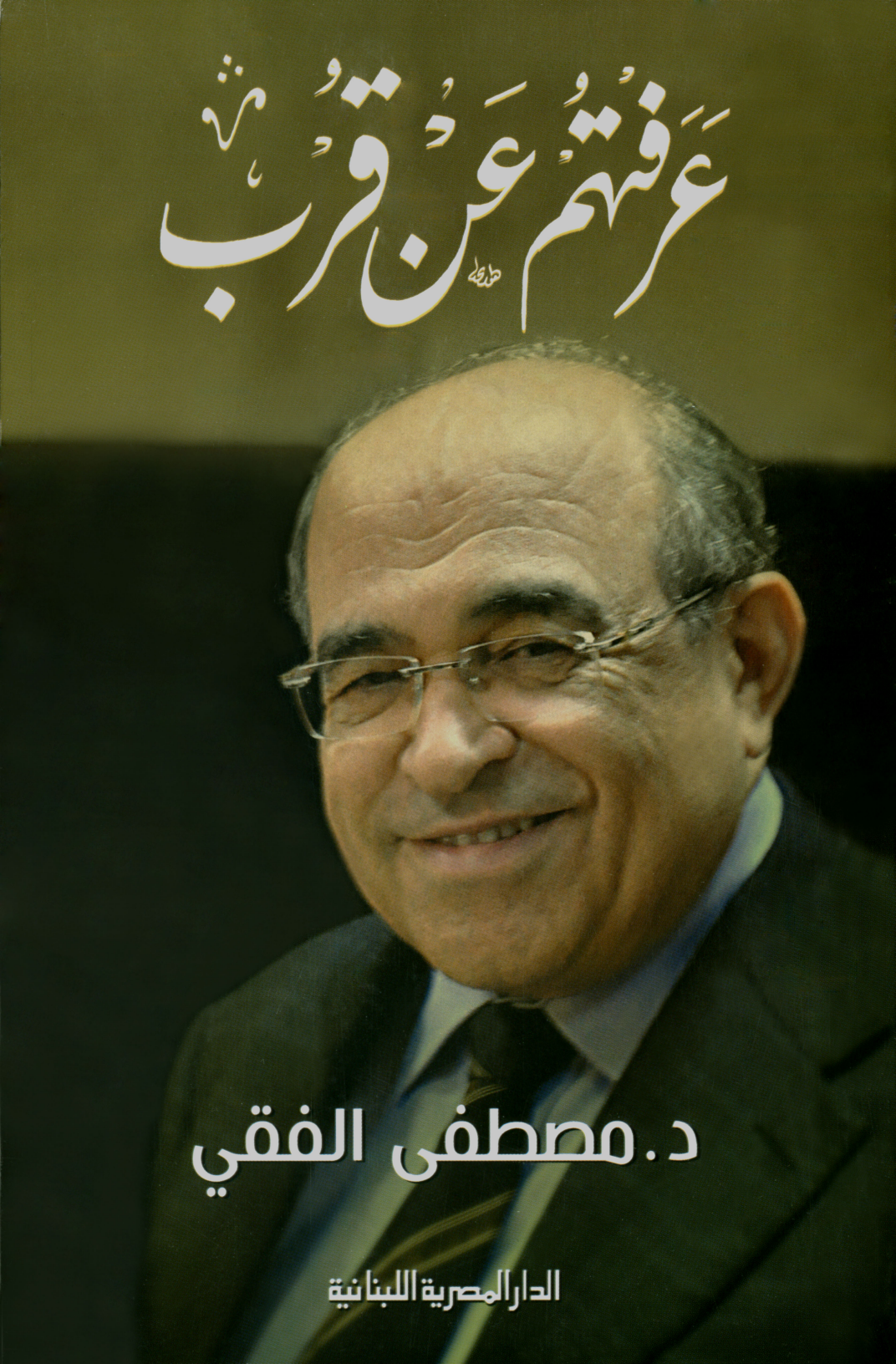

د. مصطفى الفقي

الدار المصرية اللبنانية

مقدمة

عشت حياتي مؤمنًا بالعنصر البشري مدركًا بأن الفارق بين إنسان وآخر إنما يكمن في مزيج من العقل والقلب تحت مسمى «الوجدان»، ولقد آمنت دائمًا أن الإنسان ابن ظروفه ولكن ذلك لا يعني أنه نتيجة مطلقة وليس سببًا فاعلًا؛ إذ إن الواقع يؤكد أن الفارق بين شخص وآخر إنما يكمن فيما يمكن تسميته بجدولة الذهن وترتيب العقل، وإعمال فقه الأولويات؛ لذلك اهتممت كثيرًا بالعامل الشخصي والعنصر الذاتي عند اكتشاف مقومات كل إنسان عرفته، مع محاولة الغوص في أعماق شخصيته نتيجة فضول غريزي يسعى لفهم النفس البشرية، وقد آمنت في النهاية أن الإنسان هو الإنسان بغض النظر عن العِرْق أو الجنس أو اللون أو اللغة أو الدين؛ فهناك قاسم مشترك بين البشر في كل زمان ومكان، ولا يمكن التعميم وفقًا لعوامل الاختلاف بين الناس؛ فهناك «الياباني» غير المنظم، و«الألماني» غير المنضبط، و«السويسري» غير الدقيق، كما أن هناك المهراجا «الهندي» الغني بلا حدود، و«الأمريكي» الفقير بلا دخل، و«البريطاني» الثرثار بلا تحفظ.

لا توجد قاعدة ثابتة تحكم سلوك الناس، ولكن توجد قواسم مشتركة بينهم انطلاقًا من طبيعة النفس البشرية التي تلتقي في الغرائز والدوافع والتطلعات. إنني أقول ذلك في تقديمي لصفحات كتابي عن بعض الشخصيات التي عرفتها في ميادين الحياة المختلفة؛ بدءًا من بلاط القصر الجمهوري الذي عملت فيه سنوات ثمانٍ إلى جانب ولي الأمر، وعلى مقربة من أجهزة صنع القرار؛ وذلك بعد خبرة طويلة في دهاليز السياسة وأروقة الدبلوماسية، مع اهتمام خاص بالمؤسسة الدينية سواء أكانت

«الأزهر الشـريف» أم «الكنيسـة المصرية»؛ ذلك أن أطروحتي للدكتوراه من جامعة «لندن» قد اقتربت كثيرًا من العلاقة بين الدين والسياسة، فكان طبيعيًّا أن أعطي الدين أهميته التي لا يجادل فيها خبير؛ فالدين متجذر في بلادنا على نحو فريد.

وأسجل هنا أنني قد أدركت في النهاية أننا جميعًا في قارب واحد؛ فالإنسانية كلها هـي الابنة الشـرعية للحياة بما لها وما عليها، ولقد حرصـت فيما كتبت على النظرة المحايـدة والتنـاول الموضوعي للشـخصيات المختلفـة، إيمانًا مني بـأن الجوانب الإيجابيـة لدى معظم الناس تطفو على الجوانب السـلبية لديهم، كما حرصت على التنـوع فـي الاختيار، ولـم أكتب عن شـخصية إلا وقد عرفتها عـن قرب؛ فليس فيما أكتبه توصيفًا لسـيرة ذاتية أو تجميعًا لأوراق شـخصية، إنما هو نوع من الفهم للعقل الـذي أتعامـل معـه والتـذوق للروح التـي أكتب عنها بيـن من عرفتهم، واسـتمعت إليهم، وتحدثت معهم، إنها أقرب إلى فكرة «الكاريكاتير» السياسي، أو «البورتريه» الشخصي، وقد تساءل البعض عن أسلوب اختيار الشخصيات وانتقاء النماذج التي أتناولهـا بالرصـد والتحليل، وهنا أقول إنني أكتـب فقط عن بعض من عرفت لا عن كل مـن عرف الناس! لقد تعاملت مع الملوك والرؤسـاء، والقـادة والوزراء، وعامة الناس من البسـطاء إلـى جانب المفكرين والفلاسـفة والأدبـاء، وعرفت من الناس الأغنياء والفقراء، وتلمست طريقي مرورًا بالفاسدين والشرفاء.

لقد واجهتني مشكلة عند تبويب هذا الكتاب وترتيب شخصياته وتقسيم أبوابه، فهناك مدرسـة في النشـر تفضل الالتـزام بالترتيب الأبجدي للشـخصيات، وأخرى تـرى أن الأمر أكبر من ذلك فلا تكون الفهرسـة إلا اسـتجابة لنـوع من التجانس بين كل مجموعـة من الشـخصيات تربـط انتماءها بفكـر معين أو مؤسسـة بذاتها، ولقد وجدتنـي في النهاية أميل إلى هذا التبويب، الذي مضيت عليه عند عرض هذا العدد من الشخصيات، والتي سوف تتلوها مجموعات أخرى ذات طبيعة مشتركة نتناولها على النهج نفسـه وبالسياق ذاته؛ من أجل التعريف بشخصيات رأيتها ثم تأثرت بها،

حتـى أولئـك الذين لا تتصل بيني وبينهم حبال المـودة، ولا أحمل لهم في أعماقي تقديرًا، إلا أن الموضوعية لديَّ استوجبت ألا أغفل ذكرهم أو أُغَيِّب اسمهم.

أرجـو أن يجـد القـارئ بين دفتي هذا الكتاب نماذج يتأسـى بها، أو شـخصيات يقتدي بخطواتها؛ إذ إنه لا يصح في النهاية إلا الصحيح، وأنا أسـعى مخلصًا لإعادة الثقـة المفقودة لدى شـبابنا في رموز بلدهم والأسـماء اللامعة فـي مجتمعهم، إلى جانب الشخصيات ذات الوزن الدولي أو القيمة القومية لعل أجيالنا الجديدة تدرك أن الضـوء يبـدد الظـلام، وأن الغـد أفضل مـن اليوم، فالأمل هو سـر الحيـاة ونعمة الوجود والقاطرة إلى المستقبل.

تحية للقراء الأعزاء وعرفانًا لكل من ترضيه الصفحات القادمة.

د. مصطفى الفقي

سبتمبر 2015

«.. وقد كان خصومه يعيبون عليه حدة الطبع والبعد عن الدبلوماسية... فضلًا عن أنه شخصية عصية على التطويع....».

«وأنا أتطلع إلى وجه.....، الذي كان يبدو لي كالمتحف المتنقل، والذي تفوح منه رائحة التاريخ الوطني والنضال القومي.....».

«... وظل على امتداد ما يقرب من نصف قرن نجمًا ساطعًا في سماء الشرق الأوسط، ورقمًا مهمًا في كل معادلاته السياسية....».

«... أن علاقتي بـ..... لم تكن طيبة طوال الوقت..».

* * *

هذه نماذج محدودة للغاية، بل إنها قطرات من أمواج نهر الحياة، الذي تتجسد فيه ملامح البشر وسماتهم. ويأتي كتاب **«عرفتهم عن قرب»** دالًّا على مضمونه الذي يؤكد بعدين أساسيين، أولهما أن هذه المعرفة شرط أساسي - سواء أكانت بشكل مباشر أم غير مباشر - للدخول إلى عالم الشخصية التي أتحدث عنها، وثانيهما أن القرب ضمانة أكيدة للالتزام والصدق والحيادية في تناول تلك الشخصية، رغم ما يكون هناك - بالطبع - من نقاط اتفاق أو مواضع اختلاف في الرؤى ووجهات النظر..

إن هذا الكتاب محاولة جادة لتوثيق حق الأجيال الحالية والقادمة في أن تعرف رموزًا بشرية، يتفق أو يختلف بشأنها، أو يتعاظم الجدل حولها.. ولكنها في نهاية الأمر قدمت من العطاء للبشرية وللوطن ما يستحق أن ينوه عنها.. إننا أمام محاولة للغوص في أعماق هذه الشخصيات، مدفوعين بتلك الرغبة الدفينة الكامنة في أعماقنا - منذ خلقنا الله سبحانه وتعالى - في فهم النفس البشرية واستجلاء مغاليقها، قبل أن نحكم بما لها أو عليها.

الدار المصرية اللبنانية

9 789777 950268